فكرة المقارنة وتطورها عند العرب

د.عائشة رماش
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

ملخص

رغم حداثة مصطلح" الأدب المقارن "وكونه لم يظهر علما قائما بذاته إلى الوجود إلا في العصر الحديث إلا أن ظواهره عند العرب قديمة وجدت منذ الجاهلية. والسؤال المطروح هنا، هل مهدت أجواء التواصل والتمازج لبروز فكرة المقارنة والبحث المقارني عند العرب كما هو الشأن عند الغرب؟ وهل عرف الأدب العربي قديمه وحديثه هذا النوع من الدراسة أم لا؟ من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة بقدر ما أتيح لها من الجهد والوقت والمادة العلمية أن تقتفي أثر التفكير المقارني في الدراسات العربية، وتتتبع جهود الرواد العرب في مجال المقارنة منذ العصور القديمة (الجاهلية، صدر الإسلام، الأموي، العباسي) إلى العصر الحديث، من خلال رصد ظواهرها المختلفة في الأدب العربي قديما وحديثا .

الكلمات المفاتيح : الأدب، المقارنة، النقد، العرب ، قديم ، حديث.

Résumé

Bien que «la littérature comparée» est une spécialité moderne, qui n'apparaissait pas comme une science autonome, que dans l'ère moderne; cependant l'idée de la comparaison est ancienne. Cette étude tente de retracer l'évolution de l'idée de littérature comparée chez les Arabes, en s'appuyant sur des textes littéraires anciens et modernes, afin de prouver la primauté des arabes sur l'Occident dans ce domaine.

Mots clés : Littérature, comparaison, critique, arabes, ancien, moderne.

Abstract

Although the term "comparative literature" is modern, it was shown in a lot of aspects that were as ancient as human existence. It is admitted that this kind of literature is meant to analyse the common points between different literatures in different languages as well as their effects on each other. It is a real fact that those aspects existed since El-jahiliya era.The question one may ask is: Did those links and ties between different literatures around the world contribute to create comparative literature researches in the Arab world? Another important question is: Did these kinds of studies exist in the Arab world? This article aims to return back to the origins of comparative studies in the Arab world (since El-Jahiliya- the rise of Islam-Abbasside Era) until now through analyzing its different aspects in modern and ancient Arabic literatures.

Keywords : Literature, comparison, criticism, arabs,ancient, madern.

1 –المقدمة

إن أية ظاهرة جديدة، تنشأ تدريجيا بالحدس الغامض أولا، لتنتهي بالمعرفة العقلية الشاملة المقننة؛ فالأدب المقارن مصطلح جديد لم يظهر علما قائما بذاته إلا في العصر الحديث، إلا أن ظواهره قديمة قدم الإنسان ذاته؛ فإذا كان الأدب المقارن يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها المتعددة، ثم ما لهذه الصلات من تأثير وتأثر، فإن كل هذه الظواهر قد وجدت منذ القدم، ولولاها ما عرفت الحياة هذا التطور العظيم، ولما عرف الأدب هذا الازدهار شكلا ومضمونا، فكلاهما محتاج إلى الانفتاح والاحتكاك بالغير لضمان بقائه وتفادي الموت البطيء فالعزلة الأدبية نتيجتها واحدة، وهي الخمول والجمود والركود والموت، والانطواء على النفس نتائجه دوما سلبية على الأدب المغتر بتفوقه عما سواه، والمحتقر لما عداه.

من هذا التواصل والتلاقح بين الآداب بدأت تطغى في الدراسات الغربية فكرة المقارنة بين الآداب وتحديد مدى التأثير والتأثر بينها؛ فتناول الدارسون الغربيون هذا الموضوع بالدراسة والبحث والتنقيب وأوجدوا له مناهج خاصة به وقدموا أبحاثا رسخت نوعا جديدا من البحث هو "البحث الأدبي المقارن".

والسؤال المطروح هنا، هل مهدت أجواء التواصل والتمازج في الأدب العربي لبروز فكرة المقارنة والبحث المقارني عند العرب كما هو الشأن عند الغرب؟ وهل عرف الأدب العربي قديمه وحديثه هذا النوع من الدراسة أم لا؟

2 –التواصل الثقافي ونشأة المقارنة عند الغرب:

مما لا ريب فيه أن ظهور الدراسات المقارنة قد سبقتها توافر صلات فعلية بين الآداب؛ ذلك أن الأدب المقارن يقوم أساسا على دراسة علاقات الآداب بعضها ببعض.

أما العلاقات التي جمعت بين الشعوب وبين آدابها، فهي قديمة قدم الأدب نفسه، يقول مارك بلوخ (Mark Bloch): "لا شك في أن مجيء التسمية، هو دائما حدث عظيم، حتى وإن كان الشيء المسمى قد سبق ذلك"[1] فلا أحد يعيش بمعزل عن الآخرين، والعزلة الحقيقية هي الموت الأكيد، فالكل يقتبس من الكل وهذا العمل العظيم المبني على الأخذ والعطاء هو عالمي ودائم[2].

وهنا يمكن الإشارة إلى الأدب اليوناني القديم الذي شكل النواة الأولى للآداب الأوربية جميعا إلا أننا لا نعثر في دراسات أصحابه على دراسة مقارنية.

وبذلك ظهرت أولى النهضات الأدبية في صورتها البدائية، خصوصا عندما اتصل الأدب اللاتيني بالأدب اليوناني بدءا من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، فانتفت عقدة الشعور بالتفوق العرقي والحضاري، ولم يبق الأدب وقفا على أمة دون أخرى؛ إذ لا مكان لمفهوم الاحتكار في مجال الإبداع الفني، "فالعزلة المحلية والوطنية القديمة قد تلاشت ومعها فكرة الاكتفاء بالذات أمام ترابط الأمم، والأعمال التي تنتجها أمة سرعان ما تصبح ملكا لأمم قاطبة"[3].

وقد ظهر هذا جليا في دعوة رجال الثقافة في روما إلى محاكاة أدب اليونان*1 وكانت نتيجة ذلك ظهور مقارنات على يد بعض نقاد الرومان، "وتبعا لهذه النظرية كان النقاد والمؤرخون الرومانيون يقارنون بين هؤلاء الكتاب ونماذجهم من اليونانيين، مما يعد صورة ساذجة للمقارنة "[4].

وبعد أن توحدت أوروبا حاولت الاغتراف من الأدب الأوروبي خاصة منه اللاتيني واليوناني،

حينها حققت لنفسها نهضة أدبية كانت دليلا أنار طريق "جماعة الثريا" **La Pléiade**"*2 التي ظهرت في فرنسا، وهي الجماعة التي اتخذت من نظرية المحاكاة وسيلة ناجحة لإغناء اللغة الفرنسية نظرية وتطبيقا"[5].

وبهذا يعتبر الفرنسيون أول من تنبه إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوروبية الأخرى، مما خلق الأساس الأول للتفكير في الأدب المقارن.

وقد كان للرومنتيكية أثر كبير في نشأة الأدب المقارن وتوجيه الدراسات الأدبية وجهة قد تكون مقارنة، وهنا يرد الحديث عن "مدام ده ستايل" Mme de Staël (1766-1817) التي قامت بنشاطات عديدة اتسمت بطابع الدعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الآداب، وذلك بنقلها الأفكار الألمانية إلى فرنسا في كتابها "عن ألمانيا"[6] حيث تجلت للفرنسيين عبقرية المدنية الألمانية الرومنتيكية لأول مرة، ولعبت المؤلفة دورا فعالا في توجيه ذوق العصر[7].

وانطلاقا من أن الأدب صورة للمجتمع وجهت الكاتبة نشاطاتها في النقد أولا إلى تفسير الإنتاج الأدبي بتأثره بالنظم الاجتماعية[8] التي تخضع لها الأمة "غير أن البنية الاجتماعية لدى مدام ده ستايل لا تتضمن العوامل السياسية والاقتصادية لأنها اهتمت بالبحث في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير الأدب في الدين والعادات والقوانين"[9].

بعد مدام ده ستايل ظهر اتجاه آخر يحاول تفسير الحقائق الموجودة في الأدب، وكان أكبر الدعاة لها "سانت بوف" Saint Beuve (1804-1869)، فمند أن ظهرت كتاباته النقدية خاصة كتابه "شاتوبريان وجماعته الأدبية" groupe littéraire Châteaubriant et son بدأت تتردد مقولة مفادها "أن فهم العمل الأدبي غير ممكن إلا بفهم الإنسان الذي أنتجه "[10].

ويهدف منهج "بوف" النقدي إلى البحث عن الفرد للوصول إلى مجموع الأفراد "لأنه كان يفترض وجود قانون عام يحكم الأسر الفكرية، فإن تحليل الشخصيات يحتل مكان الصدارة في إنتاجه النقدي[11]، فالجديد في الطريقة التي اتبعها "بوف" في النقد يتضح في المكانة التي خصصها للإنسان في دراسة العمل الأدبي." [12].

إن نظرية "بوف" تقود حتما إلى البحث عن عناصر تكوين الكاتب خارج نطاق أمته، إذ قد ينتمي الكاتب إلى أسرة فكرية عالمية في الآداب الأخرى، وهذا هو جوهر الأدب المقارن[13].

إلا أنه وعلى الرغم من هذا التقدم المعرفي العظيم وما نجم عنه من استيعاب دقيق للآداب الأجنبية، فإن الأدب المقارن لم يشهد طفرة نوعية إلا مع بداية القرن التاسع عشر حيث أشاع الاصطلاح "آبيل فرانسوا فيلمان" Abel François Villemain، وأجرى مقارنة حقيقية عام (1828-1829) تحث عنوان "لوحة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر"، ثم تكلم في سلسلة محاضراته الموسومة "لوحة الأدب في العصر الوسيط في فرنسا وإيطاليا وأنكلترا" عن هواة الأدب المقارن، وتفاخر في مقدمة كتابه بأن محاضراته كانت أول محاولة تتم في جامعة فرنسية لإجراء "تحليل مقارن" لعدة آداب حديثة.

وبهذا تظهر عند "فيلمان" فكرة "الأدب العام" منذ البداية، أي الدراسة المقارنة للآداب التي هي فلسفة النقد، إلى جانب اهتمامه بدراسة التأثيرات الأجنبية في الأدب الفرنسي[14] مسايرا في ذلك الدراسات المقارنة في بعض العلوم مثل ما هو عند "جورج

كوفييه" Georges Cuvier الذي استعمل مصطلح "التشريح المقارن" عام 1800 أو "علم الحياة المقارنة" أو "الميثولوجيا المقارنة" أو "علم اللغة المقارنة"[15].

انتشر الاصطلاح بعد "فليمان" انتشارا لا بأس به، فقد ألقى "فيلاريت شاسل Chasles *Villaret* محاضرة افتتاحية في الأنثيني عام 1835 سميت في الصيغة المطبوعة منها في مجلة باريس "الأدب الأجنبي المقارن" وأكد على العلاقات المتينة بين الآداب الأجنبية.

غير أن كلمة "Comparative" نافست فيما يبدو كلمة "Comparée" فقد تكلم "ج.ج.أمبير" Jean-Jacques *Ampere* في بحث "تاريخ الشعر" سنة 1830 عن التاريخ المقارن Comparative للفنون والأدب، ولكنه استعمل الكلمة الأخرى فيما بعد في عنوان كتابه "تاريخ الأدب الفرنسي في العصر الوسيط مقارنا Comparée بالآداب الأجنبية" (1841)[16]، وقد صرح "أمبير" في هذا الكتاب بأهمية الأدب، وإذا قادتنا المقارنة إلى تفوق أدب أجنبي علينا، فإننا سنعترف صراحة وعلانية"[17].

لكن فصل المقال لصالح Littérature Comparée جاء في مقالة متأخرة "لسانت بوف" Saint Beuve، كتبها في رثاء "أمبير" عام 1840 في مجلة العالمين. Revue des deux mondes

ثم وضع "بوسنت" Posnett سنة 1886 أسس منهجية الأدب المقارن في مؤلفه Littérature Comparée، وألقى في العام نفسه "إدوارد رود" Edward Road سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الآداب المقارنة، ولم يحل الحول إلا "وماكس كوخ" Max Koch يصدر مجلة الأدب المقارن في ألمانيا.[18]، وفي سنة 1895 ناقش"جوزيف تكست" Joseph Texte أطروحة عن "روسو وأصول عالمية الأدب(Jean jacques Rousseau et les origines du cosmopolitisme littéraire)

وتعد هذه الدراسات باكورة لدراسات رصينة صدرت بعدها، فقد كان "تكست" شديد الحماس للأدب المقارن، وأكد على مستقبله العظيم "نحن نؤمن بمستقبل الأدب المقارن والأدب الأوروبي، ولقد فتح براندس وماكس كوخ وأريش شميد الطريق، وها نحن سائرون فيه"[19].

وقد خلف "تكست" بعد وفاته على منبر "ليون" "فرناند بالدنسبرجر" *Fernand* Baldensperger صاحب كتاب "غوته في فرنسا" سنة 1904 ثم احتل منصب أستاذ في السربون حينما أحدث كرسي للأدب المقارن فيها سنة 1910، وقد انصرف "بيتر" Betz وبالدنسبرجر لوضع بيبليوغرافية الأدب المقارن الشهيرة التي كتب مقدمتها "تكست"، وقد تبين من ثبتها لعام 1904، أن أكثر من ستة آلاف مصنف ودراسة خصصت للأدب المقارن، ويدل ذلك على مدى انتشار هذا النوع من الدراسات، وسوف يتبوأ "بالدنسبرجر" مكانة مرموقة طوال نصف قرن، ومن مآثره تعاونه مع "بول هزار" Paul Hazard، وتأسيسهما مجلة الأدب المقارن الفرنسية، وقد كان "فان تييغم " Van Teighem مثالا للصبر في معالجته لكثير من المسائل المستعصية في الأدب المقارن وكذا "جون ماري كاريه" J.Marie Carré المتوفي عام 1954، ثم الأستاذ "ديدييه" Didier الذي حمل في أيامه لواء هذا العلم، دون أن ننسى "جاك فوازين" Jacques Voisine و"دانيال هنري باجو" Daniel Henri pageaux .

هكذا كانت فرنسا سباقة إلى إنشاء هذا المنحى الجديد في الدراسة الأدبية، كما استطاعت الحفاظ على دورها الرائد في الدراسات المقارنة لا ينازعها منازع في الفترة الواقعة بين الحربين، وإن كانت بعض البلدان قد سجلت بعض الإسهام تبقى فرنسا قبل الدول الأخرى من والت هذا العلم في نشأته وتعهدته في طفولته حتى نهض واستوى علما قائما بذاته.

3 –فكرة المقارنة في الدراسات العربية القديمة:

لقد تفطن الإنسان العربي على مدى العصور إلى حقيقة أن الحياة لا تتطور إلا نتيجة تراكم الخبرات الإنسانية، وهذه لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق الاتصال بالغير، والاحتكاك به وبالتالي الأخذ والعطاء، كما تفطن إلى أن الأدب ما هو إلا تعبير عن هذه الحياة، وإعادة تنظيم للخبرات الإنسانية، لذلك نجده حريصا على تطبيق هذه الحقيقة وتمثلها في جميع شؤونه وتصرفاته منذ الجاهلية إلى العصر الحديث.

هذا على عكس ما شاع بين الناس من أن الأمة العربية كانت في جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أي اتصال، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة، والحق أن هذه الفكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبيا؛ فكلاهما محتاج إلى الأخذ والعطاء وتبادل الخبرات والثقافات والاحتكاك بالغير لضمان قوته وديمومته وتفادي الانهيار والتقهقر والموت[20].

ولما كان التواصل والاحتكاك هو أساس الدراسة المقارنة، فإننا نرى آثار هذه الظاهرة واضحة المعالم عند العرب منذ العصر الجاهلي إلى الإسلامي فالعباسي مرورا بعصر النهضة، أين توثقت صلة العرب وأدبائهم بالغرب. فهل استطاع هذا التواصل والاحتكاك أن يفرز فكرة المقارنة مثل ما هو عند الغرب؟

لقد تلاقت القبائل العربية في **العصر الجاهلي** في الغزوات وأيام العرب والحروب، والمواسم الدينية، كما تنافس الشعراء على لقب "أشعر العرب" فوازنوا وقارنوا بين الشعراء في سوق عكاظ والمربد وغيرهما. "ويمكننا القول أن علاقات القبائل العربية فيما بينها لا تقل أهمية عن العلاقات الخارجية، فقد كانت القبائل بمثابة أمم جنينية لكل واحدة عرقها الذي ترتبط به، ولهجتها التي تشترك مع غيرها في مسائل وتختلف عنها في أخرى، وربما وحيزها الجغرافي–حتى ولو كان مؤقتا–، واستقلالها السياسي والعسكري عن بقية القبائل، ولذلك يمكننا القول أن تلك الصلات القبلية في السلم أو في الحرب كانت بمثابة صلات بين الأمم".[21] زد على ذلك الصلات التي أقامتها تلك القبائل مع الدول الأجنبية المتاخمة لها عن طريق "التجارة وإنشاء المدن العربية المتاخمة التي تتغلغل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمها."[22]

وبظهور **الإسلام** عمل العرب على توثيق الصلات فيما بينهم أولا، ثم بينهم وبين جيرانهم من الأجانب ثانيا، معتمدين في ذلك على ما دعا إليه دينهم الحنيف، وامتثالا لقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [23].

فالإسلام نبذ الفرقة والانعزال، ودعا إلى الأخوة في الدين والتعاون، ونادى بالتواصل والاحتكاك بين الشعوب للتعارف وتبادل الخبرات والثقافات، دعوة لطالما سمعنا أفواه كبار المقارنين في فرنسا وأمريكا تلهج بها، بل إن التعارف بين الناس هو الهدف الأساس.

في إطار هذه الدعوة، بدأت الشعوب الأجنبية تدخل في الدين الإسلامي أفواجا أفواجا، ملتزمة بمبادئه وشعائره، حتى انصهرت في بوتقة هذا الدين الذي وحد بين جميع الشعوب المسلمة وجعلها لحمة واحدة لا تتجزأ، إلا أن هذه الوحدة وهذا الانصهار في الآخر لم يمنع هذه الشعوب من الاحتفاظ بثقافاتها وعاداتها ولغاتها الأصلية المتوارثة عن الأجداد، مما أدى إلى تمازج الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الأجنبية.

وبهذا فإن ما حصل في الأجناس البشرية حصل نظيره في الثقافات العالمية، كما كان في الأجناس امتزاج وتزاوج وتوالد كان في الثقافات العالمية امتزاج وتزاوج وتوالد أيضا، وقد كان في الأجناس ميزات مختلفة، كل جنس له مزاياه وله عيوبه، وكانت عملية التوالد تنشأ من تلقيح دم بدم فينشأ جنس جديد له مزايا الجنسين، فكذلك الشأن في الثقافات، حيث كان هناك لقاح، ونشأ من هذا اللقاح ثقافات جديدة تحمل صفات من هذه وتلك، صفات جديدة لم تكن في هذه ولا في تلك، وأصبح لها طابع خاص يميزها عما سواها[24].

وبتطور الخلافة الإسلامية في **العهد الأموي والعباسي** شعر العرب بحاجاتهم إلى بناء الحضارة على أسس من العلم والوعي الفكري، فراحوا يترجمون عن اليونانية والفارسية* وغيرهما حتى إذا انتشرت بينهم الثقافة، واغتنى الفكر العربي بما أخذ، تفاعل مع نفسه ومع ما أخذه، فجعل ينشئ ويبدع أدبا مشبعا بالروح الأجنبية مليئا بمؤثرات من مختلف الثقافات التي احتك بها، وبهذا توفرت لدى العربي عناصر كان بإمكانه أن يتخذها مطية للولوج في الدرس المقارن[25].

لقد انتبه دارس الأدب العربي إلى هذه الظاهرة وحاول تتبعها تحت عدة تسميات، كالتفاضل والطبقة، والسرقة، والاقتباس والموازنة، والدخيل... إلخ مبتدئا في ذلك بالتفاضل في إطار ثنائي من ذلك "المباراة" التي جرت بين امرئ القيس وعلقمة الفحل حول وصف الفرس وسرعته[26].

إن هذا النوع من الدراسة، والقائم أساسا على التفاضل يحتكم أكثر ما يحتكم إلى الذوق الذي يوصل إلى نتائج نسبية إضافة إلى الإطار الارتجالي الذي يلفه؛ إلا أن هذا النوع من التفاضل كان نواة وإرهاصا لميلاد شكل جديد يعتبر ملمحا مقارنيا تمثل في "الطبقة".

لقد نشأ هذا المصطلح نتيجة عجز واضح من النقاد في إقامة تفاضل بين بعض الشعراء، كامرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة، والأعشي، ولبيد، وطرفة، وعمرو بن كلثوم؛ الأمر الذي جعلهم يساوون بينهم. فالطبقة هي مجموعة الشعراء المتساوين في خصائص معينة.

و أول من اعتمد هذا المنهج "**الأصمعي**" (ت213 هـ) في مؤلفه "**فحولة الشعراء**" ثم "**القرشي**" في مؤلفه "**جمهرة أشعار العرب**" ثم "**الجمحي**" (ت 232 هـ) في "**طبقات فحول الشعراء**" الذي قارن فيه بين شعراء العصر الواحد اعتمادا على مقياس الفحولة حيث يقول: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا فألفنا من تشابه منهم إلى نظرائه. فوجدنا عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة متكافئين متعادلين"[27].

لقد حاول ابن سلام في كتابه هذا بناء منهج لنقد الشعر والشعراء يسير عليه النقاد نراه أقرب إلى المنهج المقارن.

إن هذا المنهج "الطبقة" وإن كان قائما على مبدإ المقارنة إلا أنه لم ينجح في أن يرسم خطَ منهج مقارني واضح المعالم؛ لأن عناية النقاد اقتصرت على الترتيب التفاضلي انطلاقا مما مهدته

المفاضلات السابقة، فكانت غايتهم جمع أكبر عدد من تلك البراهين لتبرير الترتيب دون إعادة النظر فيها وهو ما حال دون تبلور المنهج المقارن، زد على ذلك الأحكام الذوقية التي كان يطلقها النقاد، والإطار الارتجالي الذي يجري فيه التفاضل، فاقتصر التعليل على مقياس موحد هو: "وقع النص" دون تحليله إضافة إلى نسبية الحكم على أساس هذا المقياس.

إلا أن هذا النوع من الدراسات أفرز رغم قصوره مصطلحا آخر كان أقرب في مفاهيمه إلى مفاهيم المنهج المقارن بكثير ألا وهو "السرقة".

لقد انشغل النقاد ولمدة طويلة بقضية السرقات، وبذلوا فيها أقصى الجهد "دعاهم إلى البحث فيها تحرّيهم لأصالة الشاعر ومدى ابتكاره وابتداعه في فنه، وأسلوبه، ومعانيه، وصوره ومعرفة ما إذا كان هذا الشاعر مبدعا لم يعتمد على أحد أم مقلدا متأثرا بغيره، ومدى هذا التأثر ودرجاته"[28]. وهو نفسه ميدان الأدب المقارن، يقول ابن رشيق: "إن اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار أوسط الحالات."[29]

لقد قامت هذه الدراسات على مقياس أساسي هو مقياس "السبق" الأمر الذي أدى إلى تقليب النظر في قضية القديم والحديث، "فعندما نتمعن موضوع السرقات في التراث النقدي العربي، نراه يدور إما حول مسألة الصراع بين القدامى والمحدثين، وما يمكن أن يؤاخذ به فريق من الفريقين قياسا بالآخر، أي حول مقارنة بين الفريقين ثم الحكم على فريق انطلاقا من معايير عادة ما تكون احتجاجية تعتمد على الأقوال والآراء والروايات، لا على التحليل المنهجي للمادة الأدبية ومقارنتها بمثيلتها."[30]

ومن أوائل الذين تناولوا هذه القضية بالدرس، "**الجاحظ**" في كتابه "**الحيوان**" حيث عقد لها فصلا. ثم التقط "**الآمدي**" و"**عبد القاهر الجرجاني**" و"**الحاتمي**" و"**ابن وكيع**" و"**ابن رشيق**" موضوع السرقات الشعرية منه وتوسعوا كثيرا في بحثه حيث قسموها أنواعا وأعطوها أسماء كثيرة يقول فيها الجرجاني: "ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علما برتبه ومنازله؛ فتفصل بين السرقة والغصب، وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز إدعاء السرقة فيه، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلسا سارقا، والمشارك له محتذيا تابعا، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه أخذ ونقل، والكلمة التي يصح أن يقال فيها هي لفلان دون فلان"[31].

لقد كانت هذه المصطلحات (الإغارة والغصب والاختلاس والانتحال والاستلحاق والاجتلاب والاهتدام والمرافدة والاحتذاء...) وغيرها نواة أولى لنشأة المنهج المقارن عند الغرب، كما شكلت النواة الأولى لنشأة فكرة الموازنة عند العرب[32].

لقد تحددت ملامح الموازنة منهجيا مع الآمدي لأنه أراد الابتعاد عن الخصومة والمفاضلة بين الشعراء، ولجأ إلى التحليل والتعليل وتبيان المساوئ والمحاسن حتى يتمكن القارئ من تذوق النص والحكم عليه بنفسه[33].

أما منهاج النقد الذي رسمه لنفسه في "الموازنة" فهو أقرب إلى مناهج النقد الحديثة؛ ذلك أنه لا يسبق كغيره إلى الإفصاح بتفضيل أحد الشاعرين على الآخر، وإنما هو يقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، كما يقارن بين معنى ومعنى، ثم على ضوء هذه المقارنة يحكم أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك

المعنى، وحينئذ يترك الحكم لمن شاء على جملة ما لكل واحد منهما، إذا أحاط علما بالجيد والرديء... وكأني به أراد بهذا الاتجاه أن يضع أسسا جديدة للنقد المقارن يحتذيها بعده من شاء من النقاد[34].

وقد ظهر هذا المنهج واضحا في قوله: "فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكني أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما، إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى ثم أقول أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى، ثم احكم أنت حينئذ – إن شئت– على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والرديء[35]."

ويبدو أن المنهاج الذي اتبعه الآمدي في دراسته للشعر والشعراء قد اجتذب إعجاب العديد من الدارسين فراحوا يقتفون أثره في مؤلفاتهم من هؤلاء: "**القاضي الجرجاني**" في كتابه "**الوساطة بين المتنبي وخصومه**" و"**ابن رشيق**" في "**العمدة**" و"**ابن الأثير**".

من هنا يحق لنا أن نعد الموازنة شيئا من المقارنة رغم أنها لم تتطور إلى منهج مقارن، لأنها لم تتخلص من النزعة التفاضلية، ولم تتعد المجال الأدبي العربي، وبقيت مجرد مقارنات داخلية هدفها الحكم على الظاهرة الأدبية، بينما تهدف المقارنة المنهجية إلى التفسير[36].

وقد أدخل الدكتور عبد المجيد حنون في مجال المقارنة تلك المقارنات التي قام بها النقاد والفلاسفة العرب؛ لأنها على حد قوله تجاوزت المجال الأدبي العربي، وتخلت عن المفاضلة والحجاج، فالمقارنات التي قام بها **الفارابي وابن سينا** و**ابن الهيثم**، ومقارنات **البيروني** و**حازم القرطاجني** قريبة جدا من المنهج المقارن، إن لم تكن منهجا مقارنيا لا ينقصه سوى عنصران هما: العلاقة بين طرفي المقارنة ثم القصد[37].

وكان الدكتور حنون قد ذهب مذهب الدكتور خليل هنداوي في اعتبار الدراسات التي قام بها الفلاسفة العرب، كابن رشد والفارابي شيئا من المقارنة خصوصا عندما نعرف أن هؤلاء قد تأثروا بتفكير اليونان وفلسفتهم، الأمر الذي جعلهم يعقدون المقارنات بين الشعر اليوناني والشعر العربي[38].

كما نستطيع أن نعد الدراسات التي قام بها الجاحظ في مجال اللغة والبلاغة ومقارناته التي انصبت على البلاغة والفصاحة بين العرب والأعاجم عامة والفرس بصفة خاصة، في كتابه البيان والتبيين شيئا من المقارنة.

وهكذا يتبين لنا أن الأدب العربي القديم، والنقد منه بوجه خاص لم يخل من فكرة المقارنة بكل ما تحمل هذه المقارنة من تسامح في المنهج والتطبيق.

4 –فكرة المقارنة وتطورها في الدراسات العربية الحديثة:

أما إذا انتقلنا إلى عصر النهضة وحاولنا اكتشاف نصيب المقارنة فيه، نجد أن هذا النوع من الدراسات قد شهد تطورا نسبيا عما كان عليه سابقا، ساعد على ذلك عدة عوامل اختلفت في طبيعتها ومدى تأثيرها عن سابقتها في القديم، أهمها ذلك الاحتكاك والتواصل الذي تم بين العرب وأوروبا عامة، وفرنسا خاصة، بواسطة الإرساليات التبشيرية، وحملة نابليون على مصر، فدولة محمد علي، إلى جانب وسائط أخرى كالترجمة والصحافة... إلخ.

لقد كانت حالة البلاد العربية في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، وأواخر القرن الثامن عشر الميلادي، غاية ما وصلت إليه من الفساد والاضمحلال، في كل مرافق الحياة سياسيا وعلميا واجتماعيا، هذه الحالة التي آلت إليها البلاد العربية،

جعلت أوروبا تجدد عليها غاراتها، ولكن لا بشكل الحروب الصليبية الممقوتة، بل بدعوة نشر متاجرها، وبث علومها وآدابها، وبمحاربة الواقفين لها في طريقها[39]، فقام نابليون بحملة على مصر، وبرغم طابعها الاستعماري إلا أنه تمكن من إنشاء المعاهد العلمية وأخذ معه علماء في مختلف الاختصاصات[40]، فأدرك المصريون أنهم يعيشون عهدا قد انقضى ومقبلون على حضارة جديدة أعجبوا بها أيما إعجاب. وهاهو "الجبرتي" يظهر لنا انبهار المصري بما جاء به الفرنسي بقوله: "شاهد المصريون في تلك المكتبة كتبا عديدة حول مختلف العلوم والفنون واللغات كما شهدوا مختبرات الفلكيين والمهندسين والكيميائيين والجراحين فشاهدوا أعاجيب لا عهد لهم بها"[41]

لقد أدت كل هذه العوامل الثقافية، إضافة إلى نظام الحكم الذي أراد نابليون إرساءه في مصر – نظام المجالس والدواوين– إلى إعجاب المصريين بالفرنسيين والتأثر بهم أشد التأثر، الأمر الذي قاد محمد علي إلى الاتجاه صوب فرنسا مستعينا بأطبائها وعلمائها وقواد جيشها وخبرتهم في نهضة مصر، ولم يكتف بذلك بل قام بإرسال بعثات علمية إلى فرنسا[42]، تستمد من حضارتها وتنهل من علومها وآدابها، وكان هذا الاستمداد سبيلا إلى النهضة الأدبية الزاهرة التي نراها اليوم في أدبنا العربي.

إضافة إلى كل هذا لعبت الترجمة دورا مهما في عملية التواصل العربي الأوروبي، حيث قام بعض المثقفين العرب بعدة ترجمات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفن والفكر والقانون والفلسفة والتاريخ، يطلع عليها قراء العربية ويدرسونها.

أما سكان سوريا فقد كانوا متأثرين ببعض نواحي الفكر الأوروبي، وكان السبب في ذلك الإرساليات التبشيرية التي بفضلها وبفضل حماية فرنسا لها نشأت شبكة من المدارس الكاثوليكية في كل مكان تقطنه طوائف كاثوليكية أو قابلة لأن تصبح كاثوليكية، وبنوع خاص في لبنان وحلب. وفي قلب الكنيسة الكاثوليكية في روما؛ تأسس عدد من المعاهد لتنشئة إكليروس كاثوليكي مثقف ومستقيم العقيدة كالمعهد الماروني، والمعهد اليوناني ومعهد جمعية نشر الإيمان، وأقيمت المدارس التي تخرج منها المسيحيون السوريون الذين أدركوا أن النهضة العربية لن تقوم إلا بتبني بعض صيغ المجتمع الأوروبي على الأقل[43].

هذه الصلة المباشرة التي انعقدت أواصرها بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، جعلت الأديب العربي دائم الإطلاع على كل جديد في آداب الغرب، سواء في لغاته الأصلية، أم من خلال ترجماته إلى اللغة العربية، فتأثر بفنونه ومذاهبه، وتعرف على العديد من أعلام الأدب الأوروبي، الأمر الذي جعل القرابة وثيقة بين الفكر العربي والفكر الأوروبي تزداد مع مرور الأيام عمقا واتساعا، مما أعطى الفرصة لبعض الكتاب الذين تشربوا من هذه الثقافة لعقد المقارنات والموازنات بين الفكرين والأدبين وصولا إلى موضوع آخر حساس جدا بالنسبة إلى الذوق الأدبي العربي، هو الموازنة بين بلاغة وشاعرية العرب والإفرنج.

إذن، فمنذ "الأيام الأولى للقرن العشرين ظهر اتجاه لدى الكتاب الرواد إلى الإقبال على المقارنات والموازنات بين الأدب العربي وآداب الفرنجة، كأنما روح المقارنة قد بدأت تتضح وكانت الرغبة تفوق المعرفة بكثير؛ أي أن الاستعداد النفسي للمقارنة والاتصال والاقتباس كان أقوى مما يلزمه من معرفة حقيقية بأدب الطرف الآخر وثقافته"[44] نجد ذلك واضحا عند ثلة من الكتاب أمثال: رفاعة رافع

الطهطاوي، وعلي مبارك، ويعقوب صروف، وأديب إسحاق، نجيب الحداد، قسطاكي الحمصي وسليمان البستاني، محمد روحي الخالدي. فإلى أي حد ضرب هؤلاء بسهمهم في مجال المقارنة؟

"**رفاعة رافع الطهطاوي**"(1801-1873)، وضع كتابا في تاريخ مدينة باريس، معنونا بـ "**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**"، وصف فيه أحوال الفرنسيين ونظامهم السياسي، ودستورهم، ثم وصف المساكن والمآكل والمشارب والعادات والملابس وتقدمهم في الفنون والصنائع، موازنا كل ذلك بما عند العرب[45]، بعدها ترجم قصة الكاتب الفرنسي (فنيلون)، وسمها بـ "مواقع الأفلاك في وقائع تليماك"، إلا أن ما كتبه الطهطاوي لا يرقى إلى الأدب المقارن، بل كان عمله عبارة عن موازنات بين الظواهر الأدبية واللغوية في العربية والفرنسية.

بعدها واصل "**علي مبارك**" على نفس المنهاج القائم على الموازنات في كتابه "**علم الدين**" فقد أكثر فيه من الموازنات والمقارنات، وقد طلب هو نفسه جمهور القراء إذا ما أرادوا نقد الأمور أن يعملوا على مقارنتها، والموازنة بينها، وقد أعلن علي مبارك صراحة أن هدفه في كتابه هذا هو المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوروبية[46] وإن كان لا يريد بها المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه الآن في مجال الأدب المقارن، ويبقى مجهود كل من الطهطاوي وعلي مبارك مجهودا غايته الأولى هي الإصلاح، فهما يوازنان قصد "إبراز العناصر الحضارية المشتركة ثم إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى تحقيق هذه العناصر الحضارية والعمل على إبرازها"[47].

ثم جاء "**يعقوب صروف**" وعبر مجلته "المقتطف" دعا إلى الاطلاع على الأدب والفكر الغربيين من أجل التجديد والتقدم وإعمال العقل والأخذ بالأسلوب العلمي، فوازن وقارن بين العرب والانجليز في ثلاث مقالات معنونة كالتالي "**شذور الإبريز في نوابغ العرب والإنجليز**"، المقالة الأولى وازن فيها بين صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلب الأسد، والثانية بين أبي العلاء المعري وجون ميلتون، والثالثة بين ابن خلدون وهربرت سبنسر. لقد وازن يعقوب صروف بين رجلين أحدهما عربي والثاني انجليزي، وقد حاول من خلال هذه الموازنات الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف في حياتهما وأعمالهما دون التطرق إلى إمكانية تأثر اللاحق بالسابق.

وهكذا جاءت كتابات صروف ضمن موجة كانت سائدة في الربع الأخير من القرن 19 بدأها الطهطاوي وعلي مبارك، ثم يعقوب صروف وأديب إسحاق، ونجيب الحداد وغيره كما سنرى بعد هذه السطور لتستمر هذه الموجة مع بدايات القرن العشرين.

بعدهما جاءت كوكبة أخرى اقتربت من هذا المجال (المقارنة)، على رأسهم،

"**نجيب الحداد**" (1867-1899) في مقالته الشهيرة "**مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي**" فهو ذو مذهب كاثوليكي، نشأ وتعلم في بيروت، ثم جاء إلى الإسكندرية وتعلم فيها الفرنسية في مدرسة "الفرير الكاثوليكية" نحو السنتين، ثم انتقل إلى مدرسة الأمريكان، وهاجر وقت الثورة العرابية إلى بيروت، ودخل المدرسة البطريركية سنة واحدة، ثم انتقل إلى مدرسة بعلبك مدرسا فأقام فيها مدة وجيزة حتى استدعته جريدة الأهرام فاشتغل محررا قيما[48].

هكذا انفتح الحداد على الثقافة الفرنسية، وتشرب منها ألوانا من المعرفة والفنون، قادته إلى الإعجاب الشديد بها وبأدبها إلى درجة أنه صرح بقصور

الوصف في الشعر العربي بالمقارنة مع وصف فيكتور هوجو لمعركة "واترلو" حيث نفى على الشاعر العربي أن يأتي بنظيره.

وبهذا أظهر الحداد تأثره وإعجابه الشديدين بالثقافة الفرنسية، هذا الإعجاب الذي انطبع في كتاباته ومقالاته وروايات ومسرحياته المترجم منها عن اللغة الفرنسية وغيره، ما يهمنا من هذه الكتابات مقالته الشهيرة التي كتبها بدافع من خاله الشيخ إبراهيم اليازجي[49]، والتي نشرت في مجلة البيان سنة 1897.

وهذا البحث على جانب كبير من الأهمية في تاريخ النقد الأدبي لما احتواه من آراء وأحكام في الشعرين، زد على ذلك أن كاتبه أنشأه على غير مثال ونحا فيه نحوا غير مألوف يوم ذاك باعتماده على الموازنة بين الشعر العربي، والشعر الإفرنجي[50].

بدأ الحداد مقاله بتعريف شامل للشعر[51] نستطيع تقسيمه إلى ثمانية تعاريف كانت كلها صدى لمفاهيم غريبة انتشرت في فرنسا في تلك الفترة؛ لأن مثل هذه المفاهيم للشعر لا وجود لها في النقد العربي باعتبارها انصبت كلها حول المضمون نازعة منزعا رومنسيا، وهذا يرجع إلى إتقان الحداد للغة الفرنسية وإعجابه بالفرنسيين وحضارتهم.

ويرى الحداد أن الإفرنج أقدر على وصف الحالة، ويستدل – كما بينا سابقا– بوصف معركة "واترلو" لهوجو، أما العرب فهم أقدر على وصف المادة وكل ما هو محسوس، من ذلك وصف المتنبي للأسد[52].

ثم وازن بين أصل الشعر عند العرب، ثم عند الإفرنج ودرجات ارتقائه في سلم الكمال منذ نشأته إلى هذا العهد، وما تقلب عليه من أحوال المعاني وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب، إذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم من مراقي تقدمها وحضارتها إلى الآن[53].

ويواصل الحداد مقارناته بين الشعرين من حيث المعنى والوزن فاعتبر الشاعر الفرنسي حرا بالمقارنة مع نظيره العربي، والذي تكبله قيود تحول دون التعبير عن كل ما يختلج في نفسه، تمثلت في الأوزان والقوافي[54]، فالشعر العربي ضيق الأفاق مقارنة بأفاق الشعر الإفرنجي.

إن هذا التصريح الذي أدلى به الحداد، جعل العديد من الأدباء العرب المتشبثين والمعتزين بالتراث الشعري العربي، يقفون موقفا مضادا له، رافضين آراءه، محاولين تبيان خطئه الذي كان سببه حتما انبهاره المفرط بالثقافة الفرنسية.

والملاحظ أن هذه الدراسة – بغض النظر عما تحمله من آراء–، قائمة على الموازنات التي جعلتها قريبة من المنهج المقارن لأن صاحبها تناول بالدراسة أدبين مختلفين لغة، مما جعل بعض الدارسين يضعون الحداد في مرتبة الريادة للأدب المقارن في الوطن العربي.

إنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال، إنكار ما تحمله هذه الدراسة من بذور المقارنة، إلا أنها تبقى دراسة مبدئية لا ترقى إلى دراسات الأدب المقارن بالمفهوم الشائع الآن، لعدة أسباب لعل أهمها:

1 غياب القصد: إذ لم يكن في نية الحداد تقديم دراسة مقارنة بقدر ما كان يهدف من خلال موازنته إلى إظهار الفرق بين الشعرين مبينا ضيق آفاق الشعر العربي الإبداعية مقارنة بآفاق الشعر الإفرنجي؛ فالحداد لم يكن غرضه من الدراسة إجراء مقارنة بمفهومها الشائع الآن، وإنما أراد المقارنة لتعريف شعبه، وإعطائه فكرة عن الأدب الفرنسي، دافعا إياه إلى الإطلاع على مقومات جديدة في

الشعر، والوقوف على حركة الأدب الحديثة التي كسرت كل قيد يحد ويعرقل عملية الإبداع.

2- أن الحداد لم يهتم بدراسة العلاقات التاريخية بين الأدبين والتي تعتبر أساس الدراسة المقارنة.

3- أن الحداد لم تكن غايته الوقوف أو اكتشاف عملية التأثير والتأثر في الأدبين بقدر ما كانت إطلاع قومه على الأدب الفرنسي ودعوة الشاعر العربي لاقتفاء أثره.

ومع كل هذا فقد استطاعت هذه المقالة أن تعطي دفعا جديدا للنهضة العربية عامة وللدراسة المقارنة في الوطن العربي خاصة، وأن تفتح مجالا واسعا للإطلاع على أدب الطرف الآخر؛ ولهذا كان من الطبيعي أن تأخذ مظاهر مرحلة جديدة للأدب المقارن في الوطن العربي بالظهور توّجها الأديب الألمعي سليمان البستاني (1856-1965).

لم يمض الكثير من الزمن حتى كان الجو الثقافي والاجتماعي قد تهيأ بشكل مدهش لظهور أول محاولة جادة متخصصة في الأدب الحديث للاتصال بالآداب الأوروبية، وتلك هي مأثرة "**سليمان البستاني**"[55] في تعريب الإلياذة التي استغرقت منه ثماني سنوات (1887-1895) ثم ما تلا ذلك عملية شرحها والتعليق عليها والموازنة بين بعض مواقفها وبين الشعر العربي مما كلفه من عمره ثماني سنوات أخرى[56] إذ انتهى من شروح الإلياذة وحواشيها سنة 1902، وأنجز كتابه المقدمات التي بلغت مئتي صفحة في أواخر سنة 1903.

ومن خلال تصفحنا **لمقدمة الإلياذة** – لأنها ما يهمنا في دراستنا هذه – وجدنا أنها مقسمة إلى خمسة أبواب، كل باب مستقل بذاته عن الأبواب الأخرى وهي: هوميروس، الإلياذة، التعريب، الإلياذة والشعر العربي، الخاتمة.

في الباب ما قبل الأخير والذي خصصه البستاني لدراسة الإلياذة والشعر العربي، قارن البستاني بين الملحمة والشعر العربي عامة والقصصي منه خاصة، لأنه حسب رأيه يماثل في فنياته وتقنياته الملحمة، إلا أن الملحمة تتميز عن الشعر القصصي بوحدة الصوت في حين تميز الآخر بتعدد الأصوات، إلا أنه يقرر مع هذا أن العرب نظموا الملاحم على طريقتهم الخاصة، ولكي يوضح ذلك راح يقارن بين ما أطلق عليه – الملاحم العربية القصيرة – وبين الملحمة الأوروبية، مبينا أوجه التشابه بينهما[57].

ثم يتحدث عن الشعر العربي في الجاهلية مقابلا إياه بإلياذة "هوميروس" ويورد أشعارا لابن الرومي، مقارنا بينهما وبين الإلياذة، عارضا لنا الشعر العربي في عصوره الزاهية وما بلغه من رقي وازدهار من حيث الفنون والأساليب.

ولم تنحصر مقارنات البستاني في الأدب والشعر فحسب بل تجاوزت ذلك إلى اللغة حيث قارن بين اللغة العربية وتاريخها واللغة اليونانية، مشيدا بمزايا اللغة العربية وتاريخها العريق[58].

وبهذا يكون البستاني قد أسهم إسهاما كبيرا في دفع عجلة الدراسة المقارنة إلى الأمام، هذا مع بعض النقص الذي شاب هذه الدراسة، لأن صاحبها لم يقصد إجراء دراسة مقارنة قائمة على أسس المنهج المقارن، بل كان يهدف إلى إعطاء فكرة عن الإلياذة التي لاحظ بعد أن عربها أنه يستحيل على العربي فهم هذا النوع من الشعر الذي لم يعهده في شعره؛ لذلك اضطر إلى تقديم شرح لهذه الإلياذة مع التعريف بصاحبها والموازنة بينها وبين الشعر العربي عامة والجاهلي منه خاصة.

لقد اكتفى البستاني في هذه الدراسة بالإشارة إلى التشابه بين الشعرين العربي واليوناني، وحاول إرجاع

هذه المشابه إلى تشابه مراحل التطور لدى المجتمعين، ولكنه لم يوح أبدا بوجود أي تبادل أو تأثر أو تأثير بينهما[59] والذي يعتبر أساس الدراسة المقارنة مما أبعد هذه الدراسة عن مجال الدراسة المقارنة الحقيقية. إلا أنه لا يمكن أن ننكر بأن هذه الدراسة أعطت دفعا جديدا لمجال الدراسات المقارنة في الوطن العربي، وخاصة الترجمة التي تعتبر مستوى من مستويات الدراسة المقارنة.

كما يعد "**قسطاكي الحمصي**" (1858-1941) بحق رائدا من رواد النقد الأدبي وذلك بكتابه الموسوم "**منهل الوراد في علم الانتقاد**" الذي أراد من خلاله التنظير للنقد الأدبي ووضع قواعد يسير وفقها النقاد.

إلا أن ما يهمنا من هذا الكتاب هو الجزء الثالث منه، الذي حاول الحمصي من خلاله عقد مقارنات بين الأدب العربي والأدب الغربي على طريقة سليمان البستاني، ولكنه لم يقترب من مفهومات التأثر والتأثير أو التواصل الثقافي أو التشابه في النتاج الأدبي بفعل تشابه المجتمعات، وظلت محاولة الحمصي محصورة في النقد الأدبي الحديث، أما ما نسب إليه من ريادة في الأدب المقارن فيرجع إلى الجزء الثالث من كتابه (منهل الوراد) الذي صدر في حلب سنة 1935. وتضمن دراسة وافية حول (الموازنة بين الألعوبة الإلهية ورسالة الغفران)[60].

إلا أن محاولة الحمصي هذه تعتبر متأخرة في الاعتبار الزمني، حيث ظهرت قبلها دراستان تعتبران من صميم الأدب المقارن.

الأولى للكاتب السوري "**أديب إسحاق**" (1856-1884)، حيث اتصل بالثقافة الغربية من خلال إتقانه للغة الفرنسية؛ فعرب الكثير من المسرحيات مع زميله سليم النقاش منها مسرحية (أندروماك) لراسين.

وفي بيروت انخرط أديب في جمعية (زهر الآداب) ثم ما لبث أن اعتلى رئاستها، وألقى فيها العديد من المحاضرات والأشعار والخطب، يهمنا منها خطبته حول (**اليونان والرومان**) وهي أول خطبة يلقيها أديب إسحاق حوالي 1875-1876 وعمره بين 19 و20، وهي منشورة ضمن مختاراته المعنونة (بالدرر)، قام بجمعها جرجس ميخائيل نحاس، وكانت الخطبة أقرب إلى المنهج المقارن الذي ساد في فرنسا؛ حيث نتلمس في هذه الخطبة خطوات المنهج وأسسه، مبتدئا بتحديد الموضوع وسببه، ثم وضح هدفه من هذه الخطبة وهذا الموضوع بالذات، بعدها قدم وصفا مستفيضا للحضارتين تاريخيا وجغرافيا، تلاها مقارنات بين الأمتين ليصل في الأخير إلى مقصده من المقارنة وهو ترجيح كفة اليونان فكريا وثقافيا وأدبيا على الرومان بل على سائر الأمم الأخرى، وهو مقصد (حضاري . ثقافي).

مما سبق ذكره نستطيع أن نجزم أن أديب إسحاق كان على اطلاع بما يدور في الأوساط الثقافية الفرنسية من مناقشات حول المقارنة وأسسها وخطواتها، خاصة إذا علمنا أنه مكث هناك أكثر من سنتين ربما قد تكون مكنته من ذلك.

إلا أنه ومع اقتراب أديب إسحاق من المنهج المقارن الفرنسي نلاحظ عدة هنات وثغرات منها:

- غلبة التاريخي على المقارني.
- عدم توظيف الجوانب التاريخية لأغراضه المقارنية.
- غلبة اللهجة الخطابية الحماسية.
- غلبة الأحكام التقويمية.

– عدم التركيز على إنجازات كل أمة حتى تكون المقارنة موثقة تاريخيا.

– الميل والترجيح الواضح لكفة اليونان على الرومان وعلى الأمم قاطبة، مع إغفال أن اليونان استفادت هي الأخرى من الحضارات القديمة (المصريين والفينيقيين).

ومع ذلك فإن هذه الملاحظات لاتغمط حق أديب إسحاق في أنه أول من اقترب بشكل واضح وكبير من المنهج المقارن الذي كان سائدا في فرنسا.

والثانية "**لمحمد روحي الخالدي**" وكتابه **(تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوغو)** هذه الدراسة التي أهلت صاحبها لأن يتبوأ مقعد الريادة ويفوز بقصب السبق، فكان بحق رائدا من رواد الأدب المقارن في الوطن العربي، سواء من حيث السبق الزمني أو من حيث السبق العلمي وذلك من خلال كتابه "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوغو" الذي بدا فيه المنهج المقارن واضحا جليا مما يؤكد ريادة الخالدي للأدب المقارن. وقد قادنا إلى إطلاق هذا الحكم مجموعة من المعطيات توصلنا إليها، كلها تؤكد على أن الخالدي فاز بقصب السبق في هذا المجال المعرفي منها:

تضافر عدة عوامل ساهمت في تكوين شخصية الخالدي المقارنة وتأهيلها لأن تكون رائدة هذا المجال المعرفي، من هذه العوامل:

1- تكوينه الشخصي، ثقافته المنفتحة، عقليته الدبلوماسية المتحررة، ثم اتصاله بفرنسا أيام كان هذا العلم في أوج ازدهاره وعنفوانه.

2- توظيفه واستخدامه لمصطلحات لصيقة بالأدب المقارن كمصطلح التأثير والتأثر والعلاقات التاريخية، والأخذ والسبق والتقليد والإتباع و... غيرها.

3- جاء المنهج النظري عنده على نسق ما اتفق عليه أقطاب المدرسة الفرنسية، فاعتمد أسسها ومبادئها (كالحد اللغوي، والعلاقات التاريخية، ثم إثبات حدوث التأثير والتأثر).

4- طرق مجالات مقارنية هي نفسها التي دعت إليها هذه المدرسة (كالأجناس الأدبية، والمذاهب الأدبية وحظ الكاتب ودراسة مصادر الكاتب...الخ).

جاء بعده **محمد غنيمي هلال** الذي تبلور على يده المنهج المقارن، والدرس الأدبي المقارن عند العرب بفضل اطلاعه على هذا المنهج في فرنسا وتتلمذه على يد أقطاب المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، فبرز هذا المنهج بجميع خطواته النظرية والعملية واضحا جليا في كتابه **(الأدب المقارن..**

5 –الخاتمة:

وهكذا فقد حاولت هذه الدراسة بقدر ما أتيح لها من الجهد والوقت والمادة العلمية أن تقتفي أثر التفكير المقارني في الدراسات العربية، وتتتبع جهود الرواد العرب في مجال المقارنة **منذ العصور القديمة**، (الجاهلية، صدر الإسلام، العباسي)، حيث وجدنا أن فكرة المقارنة برزت بشكل واضح في الدراسات العربية القديمة عبر عدة مصطلحات، خاصة في العصر العباسي حين انفتح العرب على غيرهم من الحضارات، فاتسعت الصلات الثقافية، ونشطت حركة الترجمة من اليونانية والهندية والفارسية إلى العربية، ووجدنا ذلك واضحا جليا في مؤلفات الجاحظ، ابن المقفع، البيروني، ابن قتيبة،... وغيرهم.

إلى العصر الحديث وتحديدا مابين الثلث الأول من القرن 19 والسنوات الأولى من القرن 20 أي من(1831 إلى 1904)، حيث زاد احتكاك العرب بالحضارة الغربية، وكانت بالتالي المقارنة منهجا

واضحا في كل الدراسات التي تناولت هذه الحضارة الحديثة، واتخذت هذه المقارنات اتجاهين مختلفين:

أولهما: الاتجاه الحر: وهو الاتجاه الذي لا يقيد نفسه بالبحث عن الصلات التاريخية بين الظواهر الثقافية والآداب في اللغات المختلفة المدروسة؛ وإنما غايته هو الوقوف عند أوجه التشابه والاختلاف بين الأدبين أو الظاهرتين، من حيث الموضوعات، والفنيات، والأفكار، دون الحاجة إلى إثبات علاقة تاريخية بينهما، لأن الهدف الأساسي لهؤلاء يتلخص في تعريف وتقريب القارئ العربي من فكر وآداب الغرب، وتعريفه بالأفكار والفنون والأجناس السائدة عنده، أبرز الجهود التي مثلت هذا الاتجاه: نجيب الحداد، بعض ماقدمه الطهطاوي من ملاحظات، ماقدمه علي مبارك من ملاحظات، مقالتان ليعقوب صروف، ما كتبه البستاني في مقدمته لترجمة الإلياذة، ما كتبه قسطاكي الحمصي...

ثانيهما:الاتجاه التاريخي: الذي يعتمد في دراسته على تحديد الصلات التاريخية بين العملين المقارن بينهما، ثم الوقوف على ظاهرة التأثير والتأثر بينهما، وهذا الاتجاه نجده ملتزما بأصول المدرسة الفرنسية، التي تجعل توافر الصلات التاريخية ومعطياتها كأساس لرصد عملية التأثير والتأثر وحدودها بين الآداب والظواهر الثقافية عامة في اللغات المختلفة. أبرز الجهود التي مثلت هذا الاتجاه: بعض الإشارات في مقارنات الطهطاوي الريادية، أديب إسحاق، محمد روحي الخالدي.

ونستنتج من هذه الدراسة أن الخالدي هو أول من وضع للأدب المقارن أسسه الصحيحة الثابتة، بعد أن كان نقاد العرب إلى عهد ظهور كتابه يحصرون أبحاثهم ضمن التعريف والإشارة والبحث في ألوان البيان والبديع والألفاظ والموازنات؛ لغرض الوقوف على المتشابهات والاختلافات. وأن محمد غنيمي هلال هو من أرسى دعائمه وقوانينه في الوطن العربي بطريقة ممنهجة نظرية وتطبيقا.

ومهما يكن من أمر اقتراب هؤلاء من المقارنة كمصطلح حديث النشأة أو بعدهم عنها؛ فيكفي أن جهودهم ساهمت في إحداث تطور كبير في الأدب والنقد الحديث؛ حيث فتحت ملاحظاتهم ودراساتهم آفاقا جديدة كانت غائبة عن الأدب العربي، كالمسرحية والرواية، والقصة، والملحمة، وبسط أفكار وموضوعات ومدارس جديدة لا عهد للأدب العربي بها، ساهمت في تطوره.

إلى جانب هذه الجهود هناك جهود أخرى لم يلمسها هذا البحث نظرا لتحديد مساحته الزمنية(1831-1904)، وتبقى مساحة زمنية أخرى نحن بصدد إنجازها تستغرق النصف الأول كله من القرن العشرين ثم النصف الثاني تحتاج منا إلى بحث ودراسة وتنويه بجهود قدمت الكثير للأدب عامة والدراسات المقارنية بصفة خاصة، من مختلف البلدان العربية، أمثال: غنيمي هلال، عبد الرزاق حميدة، محمد عبد السلام كفافي، السعيد علوش، طه ندا، أبو العيد دودو، بديع جمعة، إبراهيم سلامة، نجيب العقيقي، ... وغيرهم من كتاب القرن العشرين.

الهوامش والمراجع:

1- Brunel. Ci Pichois, AM. Rousseau, qu'est ce que la littérature comparée, Armand colin, Paris, 1983 p16.

2-Ibid P19.

3 -René Etiemble. Comparaison n'est pas raison Gallimard. Paris. 1963. p21.

1 * – مثل هوراس Horace (65 ق.م – 8 ق.م) الذي دعا في فن شعره قومه إلى محاكاة اليونان.

4– غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة ، بيروت، ط5، دت، ص 22.

2*– جماعة الثريا، La pleïade: هي اتجاه فكري وأدبي ظهر في عهد هنري الثاني في القرن السادس عشر، أعضاؤها من الشعراء وهم: بيير دو رونسار Pierre De Ransart ،جواشان دو بليي Joachim Du Bellay، وباستيه دي لابيروز Pastier De Lapirose وبونتس دي تيار Bontés De Tiere، جان دورا Jean Dorat، جاك بلتييه J.Peletier، أنطوان دوبائيف Antoine De Baïf، جودال Jodelle، ريمي بيللو Remy pelleaut.

5– غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 24.

6-voir, Mme de Staël , De l'Alemagne, garnier, flammarion, paris 1968 . livre II chapitre 15

7– أنظر تاريخ الأدب الغربي، تأليف مجموعة من الأساتذة المختصين، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ج2، د ت، ص 586.

8– أنظر صبري حافظ، الأدب والمجتمع، مجلة فصول . القاهرة، ع2 يناير 1981، ص 67.

9– روبير اسكاربيت، سوسيولوجية الأدب، ترجمة أمال عرموني، دار عويدات ط2، سنة 1983، بيروت، ص 9.

10– فيليب فان تييغم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ترجمة انطونيوس فريد، بيروت 1980، ص 232.

11– أنظرأحمد حيدوش، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص 11.

12– أنظر ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ج1، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، بيروت، 1958، ص232.

13– أنظر غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 50.

14 -voir Brunel , qu'est ce que la Littérature Comparée, p 16.

15– شايف عكاشة، اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 269.

16– أنظر رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، سنة 1987، الكويت، ص 311.

17 -Brunel. Qu'est ce que la Littérature Comparée, p 19.

18– أنظر ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، سنة 1972، ص 26.

19 -Pichois. Qu'est ce que la Littérature Comparée, p 19.

20– أنظر أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط11، بيروت، 1975 ص12.

21– عبد المجيد حنون، المنهج المقارن في التراث النقدي العربي، بحث مخطوط أعد لتقديمه إلى المؤتمر الدولي حول الأدب المقارن في عالم متغير بكلية الألسن، جامعة عين شمس الذي لم ينعقد، والبحث قيد النشر في إحدى المجلات العربية، ص3.

22– أحمد أمين، فجر الإسلام، المرجع السابق، ص12.

23– سورة الحجرات، آية13.

24– أنظر أحمد أمين، ضحى الإسلام، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964 ، ص 163.

* لقد تأثر العرب بغيرهم كما أثروا فيهم، ونشأ عن ذلك ثقافة مزجت بين العربية واليونانية والفارسية، وقد يختلف هذا التأثير حسب اختلاف الثقافة، حيث أخذ العرب عن الفرس بعض الفنون الأدبية خاصة التشريعية في حين أخذوا عن اليونان الفلسفة وضروبا من التفكير، أنظر: طه حسين المجموعة الكاملة (الأدب والنقد) المجلد الخامس، دار الكتاب اللبناني، لبنان، بيروت 1982 ص 582.

25– أنظر عيسى الناعوري، أدباء من الشرق والغرب، منشورات عويدات، بيروت، 1977، ط2، ص10.

26– راجع قصة (امرؤ القيس) مع (علقمة الفحل) وتحكيم أم جندب زوجة امرئ القيس في كتاب ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974.

27– ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ج1، ص 24.

28– محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، دار المعارف، مصر، 1982، ص 71.

29- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط 3 المكتبة التجارية الكبرى، مصر،1963، ص 281.

30- عبد المجيد حنون، المنهج المقارن في التراث النقدي العربي، المرجع السابق، ص 10.

31- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط2، 1951، ص183.

32- في موضوع الأخذ والسرقة عند الشعراء أنظر:

- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستفاضة، القاهرة، دت، ص258.

- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، سلسلة الأنيس، سنة 1991 الجزائر.

- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط 3، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، سنة 1963.

33- أنظر عبد المجيد حنون، المنهج المقارن في التراث النقدي العربي، المرجع السابق، ص 14.

34- أنظر عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، دت، بيروت، ص 156.

35- الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، ج1، دار المعارف، القاهرة، ط2، دت، ص 6.

36- أنظر عبد المجيد حنون، المنهج المقارن في التراث النقدي العربي، المرجع السابق، ص 16.

37- أنظر عبد المجيد حنون، المرجع السابق، ص 17 وما يليها.

38-أنظر خليل هنداوي، مقالة اشتغال العرب بالأدب المقارن، مجلة الرسالة عدد 1936/6/8، ص 938-939.

39- أنظر عز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1970، ص36.

40- للتوسع في هذا الموضوع أنظر كتاب:

- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، لجنة البيان العربي، القاهرة 1965.

41- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج4، ص 284.

42- للتوسع أنظر:

- جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة 1950.

- محمد فؤاد شكري وآخرون، بناء دولة مصر، محمد علي، دار الفكر العربي القاهرة، 1948.

43- أنظر ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، 1798 -1939، ترجمة كريم عز قول، دار النهار للنشر بيروت، لبنان 1977، ص 76-77.

44- حسام الخطيب، الأدب العربي المقارن، البداءات والتطورات الأولى، بحث ضمن أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983 ص 44.

45- أنظر رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، سلسلة الأنيس، 1991، الجزائر.

46- أنظرعلي مبارك، علم الدين مطبعة جريدة المحروسة، ج1، الإسكندرية 1982، ص 8، نقلا عن عطية نصر عامر، تاريخ الأدب المقارن، في مصر،أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، ص 20.

47- عطية عامر، تاريخ الأدب المقارن في مصر، ص 22.

48- أنظر ترجمة الحداد فيما يلي:

- إسحاق موسى الحسيني، النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1967، ص 15-21.

- نجيب العقيقي، من الأدب المقارن، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1976، ص 245-246 .

49- راجع المقالة المشهورة ضمن كتاب:

– المنفلوطي، مختارات المنفلوطي، دار كرم، ط2، دمشق، دت.

– مجلة فصول، قضايا الإبداع، العدد الثالث والرابع السنة 1992، ص 126–145.

50– أنظر إسحاق موسى الحسيني، النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1967، ص 15.

51– أنظر نجيب الحداد، مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي، مجلة فصول، ص 127.

52– أنظر نجيب الحداد، المرجع نفسه، ص 145.

53– أنظر نجيب الحداد، المرجع السابق، ص 131.

54– أنظر نجيب الحداد ص 139 – 146.

55– ولد سليمان البستاني في بكشتين من لبنان سنة 1856 ودرس العربية والسريانية في المدرسة الوطنية في بيروت، وحصل بجهده الشخصي إطلاعا على الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية والإيطالية والإسبانية والبلغارية، والهنغارية والبرتغالية ودرس الرياضيات والكيمياء والحقوق والزراعة والتجارة وعلم المعادن والاجتماع. تقلد عدة مناصب في الدولة، توفي سنة 1965.

56– أنظر حسام الخطيب، الأدب المقارن، الجزء الأول في النظرية والمنهج، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1982، ص105.

57– أنظر سليمان البستاني، إلياذة هوميروس، المقدمة، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دت، ص145وما بعدها.

58– أنظر سليمان البستاني، المرجع السابق، ص 155.

59– أنظر حسام الخطيب، الأدب المقارن، المرجع السابق، ص109.

60– أنظر حسام الخطيب، مقدمته لكتاب الخالدي، تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوجو، الإتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دمشق.